ارسلوا حملة القربينات لمهاجمة الدوق الكبير ، وبعد أن تمعّن في أعمال وتحركات أعضاء هذه الجماعة خلال السنتين الأخيرتين قرر إيڤان أن يتخلص منهم وأمر بقطع رؤوسهم . وتم توقيف معظم أنصارهم حيث عوقبوا ولم يجد شيئا هذه المرة ما قام به المتروپوليت من وساطة حميدة.

ومنذ تلك اللحظة أفلت إيڤان الحبل على الغارب لعميه(*) يوري وميشيل غلينسكي حتى أصبحا الرجلين الأكثر نفوذاً في كل روسيا . ولكنهما استعملا سلطتهما استعمالا سيئا وجعلا الحكم أسوأ وأكثر فسادا مما كان عليه في السنوات السابقة . وكان إيڤان بعد أن تخلص من فورونتسيف وبقية المتآمرين قد أخذ يمضي بقية السنة في إرضاء نزواته الشخصية التي تجمع بين الصيد والصلاة . فزار أديرة فلاديمير وموزيسك وتڤير ونوڤغورود وبسكوف . ولا يمكن لأحد أن ينكر ما كان يسيطر على الغراندوق الشاب من ورع وتقى فلشدة ما كان يسجد امام الايقونات تسبب في حدوث رضوض في جبهته . وكان قادرا على ان يقف خمس ساعات كاملة في خدمة دينه دون أن يظهر شيئا من التعب او نفاذ الصبر .ولكنه كان يعوض كل ذلك باستسلامه للسلب والنهب بحمية متوحشة الى ابعد الحدود . وهكذا كان يتحول القديس جان الذي كان يعبد في البراري الى بارابا(**) في غمضة عين وفي الليل كان يعقد اجتماعات صاخبة يهرق فيها الشراب وتقع مصاريف هذه الاحتفالات على عاتق المضيفين . وكان على كل قرية أن تقدم الضيافة لهذه العصبة العديدة وتقدم لها الهدايا الثمينة للتعبير عن ولائها وحسن نواياها . ولكنهم كانوا يمنعون إيڤان من تلقي الالتماسات من أولئك الذين يطالبون برفع الحيف عنهم لأن حادثة الخمسين من حملة القربينات جعلت أفراد حاشيته يتحسبون من سوء تفاهم آخر . وفي خلال ذلك كان يوجد امتعاض . ولم يكن يبدو أن إيڤان كان يتقيد تقيدا حسنا في تلك الحقبة بمكانته كحاكم .

(*) هما عما امه .

(**) بارابا Barabas مجرم فضله اليهود على المسيح ـ المترجم ـ